ياسين رفاعيّة

المطر

في الصباح ، كانت السماء صافية والشمس تضيء الكون . وكانت البلدة خاوية كأنها مهجورة من السكان ، والريح تداعب تراب الارض فتنشره في الفضاء .

في طرف البلدة الشمالي ، وقف قبالتها مرتبكاً . همست له :

« هل تحبني ؟ »

« احبك . »

« هل انت صادق في عواطفك ؟ »

« انني صادق في عواطفي . »

« هل انت صادق حقاً ؟ »

« حقا . »

« اذا كنت صادقاً فلينزل الله المطر . »

وبهت الشاب وتطلع الى السماء بعينين ضارعتين فيهما اسى وتوسل .

وهناك في البلدة ، كان ثمة شيخ يتكىء على عصا . تطلع الى السماء ، وابتسم . فقد كانت تبدو غيمة سوداء كبيرة تسرع باتجاه البلدة ، وهتف الشيخ : يا رب ... ان ارضنا عطشى .

ظلّلت الغيمة السوداء البلدة الآن ، وخرج اناس كثيرون من البيوت ، واخذوا يحدقون بالسماء . حتى ان بعضهم ركعوا على الارض وفتحوا اكفهم الى السماء مبتهلين :

« يا رب ... اغثنا .. انزل لنا المطر . »

واخذ الغيم يتجمع فوق البلدة ، ويتكاثف .

وتحت ظل شجرة ما ، توقف كلب بنيّ اللون عن النباح ، واقعى على قائمتيه الخلفيتين . كان يهزّ ذنبه وهو ينظر الى السماء .

ما زال الغيم يتكاثف حتى حجب قرص الشمس تماماً .

خرج سكان البلدة كلهم ، الآن ، الى الساحات ، واخذوا يتطلعون الى السماء بأعين دامعة . وكان شيخ الجامع وقسيس الكنيسة يقفان جنباً الى جنب ، ويبتهلان : يا ربّ انزل لنا المطر .

وبدأ الغيث يتساقط رويداً رويداً . ثم اخذ يشتد في هطوله . ومن المؤكد ان بيوت البلدة كلها اقفرت وغادرها سكانها في تلك الهنيهات . ووقف الجميع في الساحات ، واخذوا يبتهلون الى الله ، كل على طريقته؛ وبعد لحظات اخذوا يتراكضون. كان بعضهم يملأون اكفهم بالماء ، ثم يغسلون وجوههم . وكان بعضهم الآخر يرفعون وجوههم الى السماء ، ويفتحون افواههم ويتلقفون الماء بشفاههم . واخذ المطر يزداد في الهطول ، حتى ان صوته طغى على كل الاصوات الفرحة التي تملأ البلدة .

في الحقول ، خرجت بعض الابقار الهزيلة والخراف والحمير والكلاب والارانب . وقفت كلها تحت المطر ، واخذ الماء يغسل جلودها التي تراكم عليها التراب طويلا .

انحنى شيخ على عصاه وراح يبكي . بينما اخذ شبان البلدة يرقصون ويهزجون .

اما شيخ المسجد وقسيس الكنيسة فقد نفذ الماء من ملابسهما الى لحمهما ، وهما ما زالا واقفين وقد اغمضا اعينهما وارتسم على وجهيهما اطمئنان واضح .

هناك ، في الطرف الشمالي من البلدة ، كان الشاب يبكي بحرارة ، وقد اسند رأسه الى الجدار الترابي ، واختلط المطر بدمعه الذي كان يغسل وجنتيه . وكانت الفتاة تحدق به مشدوهة وقد اخذت يده الى صدرها . ثم هتفت :

« يا الله . انت تحبني ... تحبني . المطر ، انظر المطر ، انه يسقي الارض ، يمسح التراب عن الشجر . انه يهطل ... يهطل . »

واخذ الرعد يملأ السماء بصوته الضخم . كان الشاب ما يزال يجهش ، واخذ يدمدم:

« شكراً يا رب ... شكراً . »

همست الفتاة : « انت تحبني اذاً ... تحبني . ان الله اكد لي صدق عاطفتك . »

ولم يتكلم الشاب . رفع وجهه باتجاه السماء ، ثم سجد فجأة الى الارض ، واخذ يقبّل الطين ، يمرغ جبينه ، يغسل وجهه .

ثم وقف . لم ينظر الى الفتاة . بل هرول باتجاه الحقول .